

الحضور الفلسفي في أدب المقاومة عند غسان كنفاني (1936-1972)

*Philosophical approaches in resistance literature according to Ghassan Kanafani*د. فريدة أولمو¹

قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2

farida.oulmou@univ-alger2.dz

تاريخ الوصول 2024/01/31 القبول 2024/04/05 النشر على الخط 2024/06/01

Received 31/01/2024 Accepted 05/04/2024 Published online 01/06/2024

ملخص:

يمثل الأدب الفلسفي في روايات غسان كنفاني بداية قوية لأدب المقاومة الذي أرخ من خلاله للقضية الفلسطينية وللشعوب الفلسطينية برمزيتها فنية متعالية، امتزجت فيها قوة الكلمة بعمق الفكرة والوعي بالقضية لذلك نجد الحضور الفلسفي الدائم في كل ما كتب كنفاني "عائد إلى حيفا"، "رجال في الشمس"، كما نجده يطرح القضايا الوجودية الخطيرة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني منذ النكبة وإلى يومنا هذا، فكيف عالج غسان مآسي فلسطين من خلال القلم، وإلى أي مدى نجحت الفلسفة في اكتساح ساحة الأدب وإلباس الرواية قضايا الوطن، والحرية، والمصير وغيرها؟

الكلمات المفتاحية: المقاومة، الأدب الفلسفي، فلسطين، غسان كنفاني، حيفا.

Abstract:

The philosophical literature in Ghassan Kanafani's novels represents a strong beginning for resistance literature, through which he chronicled the Palestinian issue and the Palestinian diaspora with transcendent artistic symbolism.

For Ghassan Kanafani, the power of the word was mixed with the depth of thought and awareness of the issue. Therefore, we find a permanent philosophical presence in everything Kanafani wrote: "Returning to Haifa," "Men in the Sun."

Therefore, we wonder how Ghassan addressed the tragedies of Palestine through the pen, and to what extent philosophy succeeded in sweeping the arena of literature and covering the novel with issues of homeland, freedom, destiny, and others

Keywords: Resistance; Philosophical literature; Palestine; Haifa; Ghassan kanfani.

¹ المؤلف المراسل: فريدة أولمو البريد الإلكتروني: farida.oulmou@univ-alger2.dz

1. مقدمة:

من لا يعرف غسان كنفاني (1936-1972م)، لا يعرف أدب المقاومة، ولا يعرف الأدب الفلسفي ولا يمكنه أن يعي عمق المأساة الفلسطينية بلغة الفن ولغة المشاعر وبلغة الشهادة، ومن لا يعرف الأقلام الفلسطينية المقاومة للنكسات والنكبات والمآسي لا يعرف طبعاً ذلك الشاب الوسيم الحالم بالحرية والتحرر في كل كتاباته التي لم تمت باغتياله ولم تفن بموت الجسد الغساني، كنفاني غسان الصحفي والكاتب والمقاوم والسياسي هو ذاته

غسان الشاب ابن عكا الذي عاش نكبة 1948م متنقلاً مع عائلته بين سوريا، لبنان، مصر والكويت، هو ذاته غسان الذي جمعت أشلاءه في الطريق العام مع ابنة أخته إثر انفجار مفخخ مخطط له بإحكام، غسان هو رمز المقاومة الفلسطينية بلغة الأدب ولغة الفكر والسياسة والفلسفة؛ وكل ما قد تعبر عنه رواياته مثل: - عائد إلى حيفا- أو -رجال في الشمس- أو -ما تبقى لكم- أو رمز لكل سرد عن وحشية وهمجية وأنماط الاغتيال والتصفية من قبل المخابرات الإسرائيلية كطريقة اغتياله و غيره من شباب غزة وهم ريعان الشباب، اغتيل غسان لأنه كشف الحقائق بالقلم، وقاوم بلغة النقد ووجه رسائله الفلسفية كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ليوقظ من له ضمير من خلال "أرض البرتقال الحزين".

يعد غسان مؤسس أدب المقاومة في فلسطين حيث نشر دراسته "أدب المقاومة في فلسطين" عام 1966م، و "في الأدب الصهيوني" عام 1967، و "الأدب الفلسطيني المقاوم" 1968م وغيرها من عناوين ملهمة للعقل مغرية للفكر وللشؤون القيمي، قبل ابهار العاطفة وشاعرية الذات والوجدان.

لذلك نتساءل في هذا المقام عن الحضور الفلسفي في الأدب الفلسفي عند غسان كنفاني، وعن تجليات القضية الفلسطينية وصداها في رواياته التي عرف القراء من خلالها المقاومة الفلسطينية بكل لغات العالم، المسموعة والمقروءة والمترجمة والمصورة والمجسدة تمثيلاً وتشخيصاً في السينما العالمية؟.

وإلى أي مدى ينعكس النضج الفكري بالقضية الفلسطينية في كتابات غسان كنفاني؟

وهل نجحت الفلسفة في احتواء الرواية الغسانية؟، وإخراجها إلى العالم العربي؟

2. الحضور الفلسفي لأدب المقاومة عند غسان كنفاني

1. آثار قلم غسان كنفاني حول القضية الفلسطينية:

غسان كنفاني مؤسسة ثقافية وسياسية فلسطينية قائمة بذاتها، كانت ثلاثة عقود وست سنوات من عمره كافية ليخلف وراءه تراثاً عالمياً كثيفاً مبنى ومعنى، كان كثير المطالعة والقراءة، وكثير الترحال والتنقل، اجتمعت في شخصه ثنائية اتحاد الحضور الجسدي المرن، والوعي الفكري المبكر مما سهل في صقل موهبة الكتابة لديه، عاش متنقلاً بين الكويت، وبيروت وسوريا وغيرها من الدول العربية التي احتضنته أحياناً، وضمته وعائلته الكبيرة أو الصغيرة أحياناً أخرى، من جهته احتضن التدريس و اتقن فنون التعليم وحب التلاميذ في السنوات الأربعة التي قضاها في الكويت (1950-1956م) لكنه سرعان ما فارقته متعطشاً للنضال والبحث عن بصمة القلم.

- ✓ أحب الفلسفة والسياسة والأدب؛ كانت هذه الفنون مجتمعة في ذاته متكاملة ، كان قلمه ينبض حبا وقدوة بكارل ماركس و انجلز وزعماء الثورات وقادتها، أفادته قراءة كتب ماركس في إدراك توجهاته السياسية الواعية منذ بداية الكتابة الصحفية المبكرة.
- ✓ بيروت التي تغنى بها الشعراء عبر محطات تاريخ الصراع الفلسطيني الصهيوني، تمثلت له في بلد الحرية والشفافية والأدب، في 1960 كان له شرف الكتابة في مجلة الحرية اللبنانية " الحرية"، ومن لبنان بدأت رحلته بحثا عن سبل جديدة للمقاومة ولأدب المقاومة، شارك هذا الشاب الفلسطيني وهو لا يتجاوز عقده الثالث في أهم المؤتمرات الدولية والمحافل العالمية التي لا يتسع مجال بحثنا للتفصيل فيها والغوص في كنهها.
- ✓ ، نال 1966م جائزة "أصدقاء الكتاب في لبنان" لأفضل رواية عن رواية "ما تبقى لكم"، كما نال جائزة منظمة الصحفيين العالمية (J.O. I) عام 1974م.
- ✓ ونال جائزة اللوتس التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا عام 1975. "كما ترجمت أعماله لعدة لغات أجنبية من بينها رواية "عائد إلى حيفا"¹.
- ✓ جاءت رواية "ما تبقى لكم" عام 1966م بتساؤلات عديدة عن الشرف والام والصحراء والخيانة، وأنا اليوم ومع كل الأحداث التي تجري في فلسطين اليوم أسأل العرب المطبعين، وبعد الزمن الجميل الذي كتب فيه الرواية، ما تبقى لكم من الشرف وجنوب إفريقيا تحاول جاهدا إدانة إسرائيل وأنتم سكارى بلا وعي وبلا ضمير.
- ✓ نموذج نادر عن صورة المرأة في الرواية العربية تلك هي البدايات مع رواية "أم سعد" التي ظهرت للجماهير 1969م ونالت رصديها الواسع من الاعجاب والنقد.
- ✓ أكثر ما أبكاني وأثار حزني قديمه وجديده، وأنا التي تعلمت قراءة الأدب منذ الصغر رواية "عائد إلى حيفا" كتبها العام 1969م ، هذه الرواية هي سبب انتقالي في الدراسة من أدب الرواية إلى فلسفة الأدب وهي رواية وصف، رواية تشئت، رواية موت، رواية تعكس مرارة الواقع وبؤسه وسوف ننتقل لاحقا لتفاصيل الألم في النقاط القادمة.
- ✓ الوصف الدقيق و سيميولوجيا الواقع كان هذا في رواية " الأعمى والأطرش" التي غادرنا الشهيد قبل اتمامها. كذلك برقون نيسان حالت دون فهم مغزاها من عمق عنوانها.
- ✓ "من قتل ليلي الحايك" تلك هي رواية " الشيء الآخر" رواية نشرت في بيروت على شكل حلقات أسبوعية تحت عنوان في العام 1980م²،
- ✓ يتضح من أسلوب كتاباته وامتزاج الرمزية بالواقعية بالوعي سواء في القصة أو الرواية، أدب فلسفي بامتياز لوضوح الفكرة والروح النقدية القائمة على تجسيدها بحجاج واقعي مستوحى من واقع فلسطين ومن العناوين المستوحاة من عمق قضاياها وتنبؤها بما سيحدث غدا في فلسطين، ولهذا الشعب المسكين بسكون العرب وصمتهم وتآمرهم عليه ويبيعه للعدو بلا مبرر.

¹ - غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، مؤسسة الأبحاث العربية، ش.م.م لبنان، ط6، 2004.

² - يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسات الأدبية، (بيروت ، لبنان ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط 1، 2000)، ص1032.

عندما أذكر غسان كنفاني تأتين في الذهن عبارة الآية القرآنية: "ن والقلم وما يسطرون"¹، وتحيلني الذاكرة إلى تقارير اغتيال كنفاني من قبل الموساد الإسرائيلي في 8 جويلية 1972م بانفجار سيارة مفخخة في العاصمة اللبنانية بيروت، عن عبوة ناسفة قدرت زنتها بتسعة كيلوغرامات وضعت تحت مقعد السيارة وانفجرت عند تشغيلها، لماذا؟؟؟

لأن كنفاني الذي اغتيل لم يكن إلا مقاوما بالقلم والكلمة، لم يكن إلا شاهدا ومترجما لنكبة 1948م، ولم يكن إلا محلا وكاشفا لعوامل نكسة 1967م. يقول كنفاني: "إنني أشعر أكثر من أي وقت مضى أن كل قيمة كلماتي كانت في أنها تعويض تافه لغياب السلاح، وإنها تنحدر الآن أمام شروط الرجال الحقيقيين الذين يموتون كل يوم في سبيل شيء أحترمه. إن قضية الموت ليست على الإطلاق قضية الميت إنها قضية الباقين... الثورة وحدها هي المؤهلة لاستقطاب الموت... الثورة وحدها هي التي توجه الموت... وتستخدمه لتشق سبل الحياة"².

كنفاني الذي مارس **التأريخ بالفن** وبالرواية فبعد النكبة وبسبب ظروف اللجوء والشتات، حاول ولا يزال الصهاينة يحاولون طمس تاريخ فلسطين ومعالمها وتراثها؛ فكما فعلوا مع معالم المكتبة الفلسطينية العريقة محولين سرقة محتوياتها وطمس تاريخ "أرض كنعان" يحاولون قتل كل مؤرخ وكل فنان وكل كاريكاتيري كنجاسي العلي وكل من تسول له نفسه الوقوف ضد بني صهيون دفاعا عن القدس وعن غزة وعن فلسطين.

كذلك "غسان كنفاني الذي أصر أن يحاكي الوضع العسكري والاجتماعي والسياسي بلغة واعية راقية وصف فيها... معاناة الشعب الفلسطيني في مراحل استسلامه وانخراطه كما في مراحل كفاحه المختلفة...، فمثلا رواية "رجال في الشمس"³ تحمل الرمزية والواقعية والتحليل النقدي العميق لما يحدث في فلسطين والعالم العربي والإسلامي تعبيرا جريئا عن المستعمر ومحاولة طمس الهوية، عن الوطن، عن الخيانة وعن الإنسان الحالم، وعن الانكسار والخوف.

وقد تجسدت رمزية وواقعية رواية رجال في الشمس في التعبير عن حجم المعاناة الجسدية لأبطال الرواية الثلاث؛ من حرارة شمس الصحراء، وحرارة حديد الخزان المائي المشابهة للقصف الصهيوني الذي خلف موتى بلا قبور، وتجسيدا للرضى بمجازر نكبة 48 دون رفض أو صراخ. عطشا أو فالموت هو الموت بالحرارة في الصحراء أو في الخزان اختناقا؛ وإن اختلفت الدروب فالنتيجة واحدة لا محالة.

هذا وقد حملت رواية "عائد إلى حيفا"⁴ إجابة كنفاني عن تساؤلات عدة قائلًا: "سألت: ما هو الوطن؟ وكنت أسأل نفسي ذلك قبل لحظة، أجل ما هو الوطن؟ أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة؟ ريش الطاووس؟ صورة القدس على

¹ - القرآن الكريم : سورة القلم، الآية الأولى.

² - مقتبس من رسائل غسان كنفاني لغادة السمان (بيروت، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1992م)، كان غسان يصدقها المشاعر والأحاسيس ويأدها أحزانه وهمومه وقد صدرت الطبعة 14 للكتاب عام 2023.

³ - غسان كنفاني: رجال في الشمس، (قبرص، دار منشورات الرمال، 1913)، نشرت الرواية في طبعتها الأولى 1963م وهي مستوحاة من حياته وحياة الفلسطينيين في الكويت (انظر التفاصيل: يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسات الأدبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 10).

⁴ - عائد إلى حيفا كما ورد في غلاف الرواية طبعت أول مرة سنة 1969م (بعد النكسة)، ط2، 1980، ط3، 1985، تلتها ط4، 1987، وكانت آخر ط6 سنة 2004 وربما تلتها طبعت كثيرة بعد طوفان الأقصى 7 أكتوبر، حققت الرواية نجاحا عالميا كبيرا منذ صدورها الأول إذ ترجمت إلى اليابانية عام 1969، و إلى الإنجليزية والروسية، عام 1974، وتناقلت ترجماتها إلى اللغات الأخرى بعد ذلك.

الجدار؟ المزلاج النحاسي؟ شجرة البلوط؟ الشرفة؟ ما هو الوطن؟ أوهامنا عنه؟ الأبوة؟ البنوة؟ ما هو الوطن؟. " ما هو الوطن وما مصيرنا في ظل خيانة العرب؟

1.2 المقاربة الفلسفية لسؤال الهوية في رواية عائد إلى حيفا:

سبعون صفحة فقط غيرت المعنى الدلالي والروائي والأدبي للأدب الفلسطيني وقارنته بإشكالية " الأنا والآخر " وبسؤال الغيرية والمخالفة والاختلاف، وكذلك التمزق والشتات، فمن هو العائد إلى حيف؟ ولماذا حققت الرواية نجاحا كبيرا؟، لماذا ترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها اللغة اليابانية سنة 1969م، واللغة الإنجليزية والروسية عام 1974م، وإلى اللغة الفرنسية العام 1991م؟، لماذا حولت إلى عمل سينمائي أكثر من مرة؟

دون أدنى شك ، لأن الرواية تجسد رغبة وشعور داخلي دائم لدى غسان كنفاني في العودة إلى بلده، وتجسد المفهوم الذهني والروحي للوطنية والمواطنة، والأرض وفلسطين بشكل خاص وتبين من خلال التداعي قسوة الظروف التي أدت إلى مأساة سعيد بطل الرواية ولأن الرواية -حسب معظم النقاد- في وعائها الفلسفي الفكري تجاوزت البناء الأدبي المحض؛ إذ كانت تعبر عن أفكار وقناعات أكثر منها شخصيات أخذت مدتها في النمو لكي تخرج إلينا وجوديات حية لها وزنها وقيمتها في الرواية على حد تعبير رضوى عاشور في كتابها الطريق إلى الخيمة الأخرى(دراسة في أعمال غسان كنفاني).

وباختصار شديد لأن الرواية جسدت الاطار الفكري لما حدث وما سيحدث مستقبلا من منظور غسان، فسعيد هو أحد الفلسطينيين الفارين من حيفا أثناء النكبة وفي معركة حيفا بالضبط سنة 1948م تاركا وراءه أرضه وبيته، ووطن ممزق وأحلامه وذكرياته، والأهم تاركا خلفه طفلا رضيعا؛ هذا الرضيع الذي جاء والداه بعد عقدين من الزمن يسألان عنه بعدما تكرم الكيان الصهيوني بفتح الحدود بينه وبين الضفة الغربية بعد حرب حزيران سنة 1967م. جاء الوالدان بحثا عن رضيع وجداه شابا في عمر الزهور كما يقال.

وتبدأ الرواية الحوارية لتجسد ثنائية التشنج بين الأنا والآخر، والمستقاة من واقع مرارة الحياة هناك ، تبدأ الرواية الفلسفية، ويبدأ الحوار المسدود حين وصل سعيد وزوجته إلى مشارف حيفا، قادمان إليها برا عن طريق القدس، بعد غياب عشرين سنة، حيث خيم على كل منهما الصمت، لأنهما ثرثرا وفصلا وناقشا كل ما خطر لهما من القضايا إلا أصل وسبب مجيئهما إلى حيفا، وقد أدركا هذا بالفعل في مداخل حيفا حيث وصلا، هناك فقط أدركا أنهما لم يتحدثا عن الأمر الذي جاء من أجله، في هاته الأثناء "جاء الماضي حادا مثل السكين"¹ ، ماض مؤلم وحزين ومؤسف ، لأنه وبسبب بني صهيون اضطرا للمغادرة قصرا دون خلدون الرضيع، في هاته الأثناء فقط تساءلا عن قساوة التفكير بالابن الرضيع ، ولم يفكرا بقساوة ما سيلقون ويجدون من مفاجآت وربما صدمات؟.

¹ - غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، ص14.

هل مات الرضيع؟، هل هو حي، كيف هو إن كان حي يرزق، ماذا يفعل؟، هكذا هو الشتات، وهكذا هي الروح المنكسرة تسأل دون جواب؟.

بدأت أحداث الرواية من خلال وصف الاجتياح المفاجئ للاستعمار اليهودي على حيفا، وكيف اهتزت شوارع المدينة واكتظت رجالا ونساء، شيوخا وعجائز، شبابا وأطفالا، مرعوبين جراء الهول الذي خلفه القصف والدمار والرصاص يوم الأربعاء 21 نيسان 1948م حيث كان سعيد حينها خارج البيت أين تواجدت زوجته صفية وابنه خلدون؛ و فجأة و لما اكتسح المستعمر الصهيوني شوارع حيفا أراد سعيد بطل الرواية الرجوع إلى منزله لأخذ زوجته وابنه خلدون للهرب معا، إلا أن الأمر حال دون ذلك وصارت الرجعة مستحيلة لأن القصف قد اشتد في الشوارع وصارت تعج بالناس الفارة نحو الشارع الرئيسي المؤدي إلى الساحل، وفي لحظة هلع و ذعر وخوف خرجت صفية بحثا عن زوجها تاركة الطفل وحده في البيت دون وعي منها بخاطر ذلك على الرضيع، فحين يمتلك الخوف قلب الإنسان يفقد القدرة على التوازن الذهني ويسيطر القلق على الذات وهذا ما حدث لصفية التي فكرت في البحث عن سعيد تاركة الطفل وحيدا في البيت.

ومن سوء الحظ؛ أن عثر سعيد على زوجته ورافقها دون التمكن من العودة إلى البيت لاسترجاع الطفل، لأن الشوارع كانت قد حوصرت تماما وأغلقت كل المنافذ، حيث اضطر سعيد وزوجته للنزوح مفارقين بيتهما وابنهما وذكريتهما وكل ما يملكون بحرقه لا توصف ولا يعبر عنها إلا فلسطيني هجر قصرا مثلهما.

ومن سوء الحظ أيضا أننا نشاهد ذات الذعر وذات الخوف وذات الدمار يحدث اليوم في فلسطين لكن ما يحدث لا نقرأه في رواية ولا نشاهده في فيلم بل ما يحدث في الواقع وهو ما يحدث اليوم يا من تتابعون أخبار الجزيرة والعربية والقنوات التلفزيونية الرسمية التي لم تعد الحقائق فيها مطمسة أو مبهمة، لأن الصورة جسدت الواقع وكشفتها وإن كانت بعض القنوات تخادع فالأخرى تكشف ولأجل نشر الحقائق تتسارع.

غادر سعيد وصفية جبلا وليس اختيارا، واستقرا في "رام الله" وأنجبا ولدين آخرين؛ وعاشوا هناك طوال عشرين سنة؛ إلا أن ابنهما خلدون كان في الذاكرة معهما في كل وقت ورغم محاولاته (الأب سعيد) المتكررة وبكل الطرق لاسترجاع خلدون الابن لم يتمكن من ذلك فتملكه اليأس ودعا ربه منتظرا ساعة الفرج.

وصل سعيد رحلته المشؤومة، بعد فتح الضفة إلى بيته، وبعد عشرين سنة استطاع هو وزوجته أن يعودا إلى حيفا لزيارة منزلهما القديم في الخليصة ولما وصلا إلى المنزل وطرقا الباب، فتحت لهما امرأة يهودية من أصل بولوني اسمها "ميريام" ودعتهم للدخول.

تفاجأ عندها الزوجان وبدت ملامح الغرابة على وجهيهما لأنهما وجدا المنزل على حاله لم يتغير فيه شيء لا الفرش ولا الزينة ولا الأواني... لا شيء تغير، إلا ملامح الدهشة والحيرة والصدمة؛ وهنا تجلت وبوضوح (صدمة الهوية) عندما قالت اليهودية ميريام عن ابنها دوف: "إنه ابنكما الصغير وقد ربته طيلة عشرين سنة وروت لهما القصة من البداية عن تبني ابنهما خلدون الذي أصبح "دوف"¹ حيث قامت الوكالة اليهودية بتسليمه لها، كهدية مع البيت وحينها فقط أدرك سعيد وزوجته صفية أن خلدون أصبح دوف وهو الآن ابن لزوجين يهوديين احتلا المنزل. واحتلا مكانهما في قلب وفكر طفلهما الرضيع الذي ترعرع على يد ميريام ونشأ

¹ - غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، ص20 وما بعدها باختصار وتصرف.

نشأة يهودية بامتياز. وهنا أدرك كل من سعيد وصفية أن مدارك اللعبة اتسعت للعب بفكر وقلب الابن أيضا أي أنهما احتلا الوطن وهوية المواطن. وهنا نطرح السؤال؟

ماذا بعد؟، كيف تفاعل سعيد وزوجته صفية مع الوضع؟
من السبب في كل هذه؟

هنا تكمن فلسفة ورمزية غسان كنفاني عندما جاء "خلدون" أو "دوف" إلى المنزل وما إن أخبرته "ميريام" عن سبب مجيئهما أي والديه الأصليين حتى انفعل وأخذ يصرخ في وجههما وكأنه يحاكمهما ويستهنئ بهما ويعاتبهما على تركه وهو طفل صغير ووصفهما بالجن والعجز. مما يثبت طغيان الفكر الصهيوني عليه وأقر بعد ذلك بأن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية، وأن الدموع لا تسترد المفقودين قائلا: "كان عليكم إلا تخرجوا من حيفا، وإذا كان هذا أيضا مستحيلا فقد كان عليكم إلا تكفوا من محاولة العودة... أتقولون إن ذلك أيضا مستحيلا؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي ! عشرون سنة ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ (...). لا تقل لي إنكم أمضيت عشرون سنة تبكون¹؟" وبعد محاولات فاشلة في إقناع خلدون بالرجوع . وعن أي رجوع يحدثون دوف؟ عن رجوع خلدون إلى الأصل؟، أم عن تحلي دوف عما اكتسبه - رغما ودون إرادة منه - دوف الذي صرح معبرا: "إني في قوات الاحتياط الآن ، لم يقدر لي خوض معركة مباشرة إلى الآن لأصف لك شعوري، ولكن ربما في المستقبل أستطيع ، إنني أنتمي إلى هنا ، وهذه السيدة هي أمي ، وأنتما لا أعرفكما ولا أشعر اتجاهكما بأي شعور خاص، عن أي تاريخ تحدثون يا أولي الألباب ؟ وعن أي أصل تناشدون دوف؟

أسئلة لا تنته، و حيرة فلسفية عميقة... عن أي رجوع تسألون يا أهل حيفا؟

المأساة كل المأساة أن الرواية خلصت إلى حيرة سعيد وفقدانه لتوازنه الهوياتي لأن ابنه خالد قد دخل مع مجموعة من المقاومين ضد الاحتلال، "وربما سيلتقي هذان الأخوان (خالد وخلدون) بصفة أعداء، وإن كان خالد شرفنا الباقي²"، فمن هو دوف؟ ولماذا عاد إذن؟

وتحول البيت الذي كان يحلم سعيد وزوجته صفية برؤيته بكل شوق وحنين بعد ساعات إلى مكان معاذ إذ يقول: " وقد بدت له الأشياء أقل أهمية مما كانت قبل ساعات وغير قادرة على إثارة أي شيء في أعماقه³" وعاد يتساءل ما هو الوطن؟ من هو الإنسان؟ وماهي الحياة؟ ماهي العروبة وما هي الأبوة؟.

طرح غسان كنفاني أسئلة فلسفية جوهرية وثقيلة في نهاية الرواية معبرا عن حالة سعيد كواحد من مئات الفلسطينيين الذين عاشوا مرارة الذل والهوان ومرارة فقدان بشى أنواعه، أين تحولت كل المطامح إلى أوهام ، وفي الرواية تتلخص مسارات الذات الفلسطينية في معركة حيفا أي تتجسد الحقائق الواقعية في شخصية البطل سعيد الذي أدى به الحال إلى الموت الروحي والاعتراب النفسي هو وزوجته صفية وغيرهما كثيرون ،بعد أن لقوا ما لقوا من نكران وصدود سواء من الأرض أو الابن وحتى الأشياء التي فقدت معنويتها

¹ - غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، ص34.

² - غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، ص75.

³ - غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، ص75.

رغم بقائها المادي في ذات المكان عشرون عاما كاملة، عاد سعيد أدراجه مرة أخرى إلى الديار في رام الله خاتما تلك العودة الدليلة، وعلى أمل العودة مرة أخرى تحت ظل الحرية.

ولا يمكننا في هذا المقام ومن خلال تحليلنا النقدي للرواية إلا الاستشهاد بما قالته الروائية الفلسطينية صبيحة عودة زغرب: "جاءت أعمال غسان كنفاني مشحونة بالهاجس الوطني، مبلورة الرؤية (الكنفانية) بين الحلم والواقع (الثورة والمستقبل) من جانب، وبين (الأنا والآخر) من جانب آخر" وهو القائل على لسان سعيد البطل لابنه الذي تشرب من حليب شعب الله المختار واقتنع بمئات الفتاوى الدينية التي تبرر قتل العرب والتنكيل بهم، "قد تكون معركتك الأولى مع فدائي اسمه "خالد" وخالد هو ابني ارجو أن تلاحظ أنني لم أقل أنه أخوك، فالإنسان كما قلت قضية"¹.

وما أكثر القضايا التي كانت سببا في اغتيال غسان وهو يخرج من بيته صباحا مخلفا وراءه زوجة وطفلان يتيما، ككل عائلة من عائلات فلسطين، أرامل ويتامى وشهداء على الدوام.

وكم من قضية جعلت هذا الأب يرفض أبوته لدوف ويثبت لنفسه أن موت الابن وخسارته، ليس بحجم الخسارة في التخلي عن فلسطين وعن القضية ويواجه السيدة اليهودية ويتهمها بالكذب على هذا الطفل الذي ربما جلبته من إنجلترا أو بولونيا، وأنه ليس أبنهم وربما كان ابنهم خلدون هو ذلك الطفل الذي مات قرب كنيسة بيت لحم، فإن كان الموت مرا فالفراق أمر من الموت وإن ترك الطفل هو بخس يهودي محض وحقارة ليس بعدها حقارة.

2.2 سؤال الموت في رواية رجال في الشمس²:

يقر غسان في أكثر من رواية ومقال على أن الإنسان قضية، وتعد قضية الموت والحياة من أهم قضايا الفكرية والسياسية المطروحة فرواية "رجال في الشمس"، التي طبعت في العام 1963، أشهر أعماله على الإطلاق، وأكثرها رواجاً في عالم الأدب في العالم العربي والغربي معا، وحتى في عالم السينما تحت مسمى "المخدوعون" في العالم الذي اغتيل فيه غسان، هكذا انتهت الرواية، بسؤال فلسفي عميق: لماذا لم يدقوا الخزان؟

لم تكن لهذا السؤال إجابة شافية من المحللين والنقاد، لماذا لم يدقوا الخزان؟، هروبا من الموت؟، أم خوفا من الموت؟ ، أو استسلاما للموت؟

هل الموت الذي وصفه غسان هو موت مادي بيولوجي، أم موت نفسي داخلي يحمله جسد فيزيولوجي مليء بالانكسار والانحرام؟

حتى يفهمني القارئ؛ تدور أحداث الرواية حول الحياة المأساوية التي عاشها الفلسطينيون بعد النكبة حول ثلاثة رجال فلسطينيين من مختلف الأعمار اختاروا الهجرة إلى الكويت بطريقة غير شرعية عبر الصحراء لعدم امتلاكهم جوازات للسفر وأوراق ثبوتية هرباً

¹ - غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، ص31.

² - تصم الرواية 112 صفحة، نشرت عام 1963 و هي أول رواية لغسان كنفاني ، في المجلد الأول في كتاب غسان كنفاني 'الآثار الكاملة' الذي كانت ط1، نوفمبر 1972م، عن دار الطليعة للطباعة و النشر. ترجمت الرواية بقدر نجاحها وشهرتها إلى: الإنجليزية و الفرنسية و الهولندية والألمانية السويدية و التشيكية، والنرويجية وغيرها من لغات العالم .

من الفقر وحياة الذل والظلم في المخيم بعد الغزو الإسرائيلي، أبطال القصة الثلاثة هم أبو قيس، أسعد ومروان، يمثلون في الرواية أفراد الشعب الفلسطيني كله، يمثلون رجال فلسطين ونساءها وشبابها وكهولها الذين يموتون كل يوم **ولا تعرف لهم قبور**، والذين هم أحياء موتى بلا قبور، يتمثل موت الأبطال الثلاثة في الخزان موت شعب بأكمله في نكبة 1948م، دون أن يصدر لهم صوت وهم الذين تساءلوا كثيرا عن الموت عندما قرروا السفر إلى الكويت إذ كانوا يقولون لهم فلان مات لم يعد من الكويت، لأن ضربة شمس قتلته، سقط ميتا وهو يحفر بفأسه لأن شمس الكويت حارة جدا وقاتلة، هم الذين كثيرا ما تساءلوا هل ضربة الشمس قاتلة فعلا؟ هل يمكن أن تعلوا ضربة الشمس الكويتية وتقتل كل ذلك الزخم المتراحم في صدورهم من التساؤلات؟

أربعة أشخاص هم: أبو الخيزران (ملك الموت) وهو السائق الذي تعهد بإيصال أبطال الرواية إلى صحراء الكويت والذي همه الوحيد هو جمع المال الذي به، لا يمكنه إعادة ذكوره التي فقدتها منذ عشر سنوات في انفجار قنبلة، مهما فعل؛ و أصغرهم سنا مروان الذي قرر الهجرة لإعالة عائلته، أما رمز شجرة الزيتون فهو أبو قيس الذي أصبح يعيش في المخيمات بعدما فقد كل شيء حتى غصن الزيتون، وآخرهم أسعد المطارد سياسيا والمهدد بالقبض والموت باستمرار. ولكنهم قرروا فجأة الحرب في شاحنة الموت " الشاحنة هي آلة الموت"، فهي جهنم حقيقية لمن يريدون العبور، تحمل الثلاثة رجال على ظهرها و تحبى في أحشائها الموت، موت حرارة الصحراء، وموت حرارة الخزان، التي تنعكس من حرارة الصحراء وحرارة المحرك وحرارة الخوف. وتبدأ الرحلة حين يقود أبو الخيزران سيارته الضخمة طوال ست ساعات فوق تلك الأرض الخادعة وهنا بدأت الرواية تفصل في أنماط الموت.

يميز عسان كنفاني بين أشكال مختلفة للموت:

✓ فهو في بداية الرواية يستذكر على لسان البطل موت أحد المعلمين قبل النكبة وكأنه يثير لدى القارئ مشاعر الفخر والفرح "يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم، يا رحمة الله عليك، لا شك أنك ذو حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في أيدي اليهود...¹". ويستطرد وصفه للأستاذ سليم الذي انقذ شيخوخته من العار ومن الفقر.

✓ ويروي لنا نوعا آخر من الموت حين يصف لنا شعور أبو الخيزران حين استيقظ على صوت الأطباء وهم آسفون جدا لأنهم لم يتمكنوا من إنقاذ رجولته أو ذكوره فقد ماتت أعضائه الجنسية في نكبة 1948م على إثر انفجار قنبلة بين ساقيه الذي وبعد عشر سنوات من الحادث يعترف أنه **ضيع رجولته في سبيل الوطن، ومعها ضاع الوطن**، فتبا لكل شيء في هذا الكون الملعون.

✓ وفي الصفحة التاسعة والثلاثون يحاول غسان أن يصف لنا نوعا من الهروب من الموت حين يتأمل مروان الوصول إلى الكويت خلال أيام ويغرق إخوته بالخبز، **أليس الجوع موتا؟؟؟**

✓ وعن **موت الأمل** يخاطب غسان أبو قيس ويسأله لماذا عشر سنوات كاملة من الموت وعدم الرغبة في الحياة؟، في السنوات العشر الماضية؛ لماذا لم تفعل شيئا سوى أن تنتظر؟

لقد احتجت عشر سنوات كبيرة جائعا كي تصدق أنك فقدت شجيراتك وبيتك وشبابك كلها؟.

لماذا؟، ولماذا؟ هذا الرضا بالموت الروحي؟ في هذه السنوات الطويلة وأنت مقعد ككلب عجوز في بيت حقير؟ وأنت الذي عشت موت فلذة الكبد بعد شهرين من ولادة ابنتك بسبب الجوع والظلم والطغيان واشتمزاز الطبيب الذي وصفها بالحنيلة ولهذا ماتت.

¹ - غسان كنفاني : رجال في الشمس، ص11.

لماذا رضيت بالموت وأنت الذي كنت تشتم رائحة الأرض وتنفسها في شعر زوجتك الخارجة من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد؟
 ✓ أما الموت الرئيس في الرواية فهو الاستسلام التام، وعدم مقاومة الموت من قبل مروان، وأسعد وأبو قيس وهذا يمثل في الرواية موت شعب بأكمله دون مقاومة أو محاولة وربما دون أي رغبة في الحياة، هكذا قال أبو الخيزران: لماذا لم يدقوا الخزان؟
 لماذا لم يدقوا الخزان؟

موت الانكسار هو الاختناق داخل خزان الماء في وسط الصحراء وتحت حرارة الشمس، وبعد قطع مسافات طويلة نحو الكويت هربا من موت آخر محتوم، يتألم ويتأفف أبو الخيزران ويصاب بالهلع والخوف والصدمة وبكل مشاعر الذعر، لقد ماتوا جميعا ميتة مروعة، لقد اختنقوا جميعا في صمت، ومع هذا قرر رميهم في الصحراء، هل يتمكن من ذلك؟، أم يجد حلا آخر، فقد اشتد عليه الخوف والذعر والتعب النفسي قبل الجسدي ولم يتمكن من دفن كل واحد على حده كما كان ينوي من قبل في ثلاثة قبور منفردة.

يصف غسان كنفاني حالة أبو الخيزران عندما اكتشف موت رفاقه معبرا: "... قفز إلى الخارج وأغلق الفوهة ببطء، ثم هبط السلم إلى الأرض كان الظالم كثيفا مطبقا، وأحس بالارتياح لأن ذلك سيوفر عليه رؤية الوجوه، جر الجثث واحدة واحدة من أقدامها وألقاها، حيث تقف سيارات البلدية عادة لإلقاء قماتها كي يتيسر فرصة رؤيتها لأول سائق قادم في الصباح الباكر¹"، قرر في النهاية منحهم حق الدفن بدلا من تركهم غذاء للحيوانات المفترسة.

كل هاته النماذج التي قدمناها على لسان كنفاني حول الموت ماهي إلا أسئلة عن مصير الإنسان الفلسطيني، ومصير الإنسان العربي، ومصير الإنسان الإنسان؟ فيا أيها الناس ما تبقى لكم؟

وقد بين لنا، الباحث يوسف سامي يوسف في كتابه غسان الكنفاني، رعشة مأساة، كيف أن إن رواية رجال في الشمس صورت بالفعل السقوط الفلسطيني في نكبة 1948م، وما رافقها من ذل وجوع وهوان " ووقع جميع الأجيال الفلسطينية تحت وطأة التشرد والضياع، كما تناولت الرواية المعاناة في الغربة وفقدان الهوية والسعي وراء لقمة العيش انتحارا تحت الشمس.

3.2 . الأدب الفلسفي عند غسان كنفاني بأقلام قارئيه:

علينا التذكير وفي كل مرة نقرأ فيها لغسان كنفاني، العاطفة القوية التي تحرك المقاومة وتقويها كلمة ومعاني في كل ما كتب من قصة أو رواية أو مقال فهو القائل في حواراته المختلفة: "... عندما أكتب عن عائلة فلسطينية فإنني أكتب في الواقع عن تجربة إنسانية، ولا توجد حادثة في العالم غير متمثلة في المأساة الفلسطينية، وعندما أصور بؤس الفلسطينيين، فأنا في الحقيقة أستعرض الفلسطيني كرمز للبؤس في العالم أجمع...²"، هذا القول يحيلنا الى ما يدور حولنا في غزة، وإلى وحشية الكيان الصهيوني وتكالبه في ظل الخيانة (الخيانة العظمى)، التطبيع، المصالح المشتركة والقوى المتآمرة ضد الإنسانية باسم الإنسانية وحقوق الإنسان.

إن صراع الأنا والآخر، وجدل القوة والانكسار، و التعاطي الواقعي لثنائية الموت والحياة في روايات غسان كنفاني كانت شريان أدب المقاومة الذي عزز من قوة الهوية الفلسطينية، والتي فتحت الباب واسعا أمام محمود درويش، سميح القاسم، غادة السمان وغيرهم

¹ - غسان كنفاني : الأعمال الكاملة(الروايات)، المجلد الأول، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1972م، ص 151.

² - عاشور رضوى: الطريق إلى الخيمة الأخرى، دراسة في أعمال غسان كنفاني، (بيروت، لبنان دار الآداب، ط2، 1981).

كثيرون، هذا وقد اعتبرت أعماله "أيقونة الأعمال الروائية الفلسطينية، فقد كانت متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية ومصدر وحي لجيل كامل من حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل"¹.

كانت إجابات غسان دافنة دائماً، كانت كلها حبا وعشقا وحنانا يتنسم فيها تراب غزة ونسيمها، كان كاتباً وسياسياً بالقلم كثيراً كما كان يجيب عن العلاقة بين السياسة والرواية أو الأدب بشكل عام بأنهما روح غسان، رثاء تتنفسان السياسة والأدب والمقاومة مجتمعة ملتصقة. وكانت كل رسائله لغادة السمان وصفا لشواطئ غزة وأماكنها التي كان يتمناها مفعمة بالسعادة والبشاشة والرضى، كما كان يسأل حبيبته عادة هل يمكن أن يتذكره أناس غزة ويحبونه كما يحبهم ويتمنأهم دون وجع ولا ألم وبلا معاناة ومآسي هل سيتذكره الناس مستقبلاً.

شعر الرجل بقصر رحلته وبعدم قدرته على رؤية مستقبل غزة، لكنه أدرك تماماً أن قوة كلماته لا تعوض السلاح وأنه مهما طالت الأيام أو قصرت حتى وإن مات، سيأتي رجال يحملون الأمانة، ويملكون الشهامة، ويصارعون الموت الحقيقي لا موت الجبناء. وأنا بدوري أدعوكم لقراءة الرسالة كاملة كما نشرتها عادة السمان دون أن تغير فيها حرفاً واحداً متسائلة يا ثرى، هل كان غسان يدري وهو يسطر رسالته لي أنه يكتب نبوءة لا رسالة؟ هل كان يحدس أنه لا يضع نقطة النهاية، بل كلمة البداية؟

وأشاطرها التساؤل اليوم وغداً مع كل ما يحدث اليوم ومنذ 7 أكتوبر 2024 م، هل هناك اليوم رجال شجعان يحملون القدس وغزة وحيفا في قلوبهم، ويحملون القلم بكل حرية وعنفوان، وهل هناك رجال شجعان يحملون السلاح ويواجهون بني صهيون لاسترجاع غزة وشجرة الزيتون.

هل يزال غسان محبوب في غزة، وهل مزال الأمل في العودة إلى حيفا، وهل يمكننا تذوق طعم البرتقال؟

3. خاتمة:

- لقد تبني غسان كنفاني أدب المقاومة، كما تبني عبارات لا يتقن رصدها غيره من الكتاب والروائيين، تميز بالرمزية والواقعية والأيدولوجية الصريحة الواضحة.
- استطاع غسان التأريخ بالأدب وبالأدب المقاوم سجل تاريخ النكبة والنكسة بحروف من ذهب، عرفت كتاباته العالمية في وقت مبكر جداً.
- رصدت كتاباته أهم مراحل القضية الفلسطينية وما ميزها من تمزق وشتات وخيانات متكررة.
- تمثل الرواية الغسانية النموذج الأرقى للأدب الفلسفي الناجم عن الوعي الفكري، وعمق القضايا الفلسفية المصرية كالهوية، جدل الأنا والآخر، الحرية وحقوق الإنسان ووهم العيش المشترك.
- قدم غسان كنفاني من خلال الأدب الفلسفي الروائي رسائل واضحة لساسة العالم عن الكيان الصهيوني وعن همجية من يسمون أنفسهم بشعب الله المختار.

¹ - غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، 1635-1699 دراسة دار منشورات الرمال، قبرص، ط1، 2013، ص3.

- تميزت رواياته بالطابع الإشكالي الفلسفي حيث اتسمت عناوين رواياتها بنهاياتها المأساوية وبحجاجها الواقعي المستمد من الأحداث اليومية في فلسطين.
- اتسمت رواياته رغم التراجيديا والإحباط بنوع من الأمل في التغيير والرغبة في مقاومة المستعمر، فذرات الأمل المنبعثة من شخصية الكاتب و عروبه و وطنيته تناثرت هنا وهناك تحت عدة مسميات وعبارات مثل "قد"، "سوف"، "ربما".
- أما شوق الكاتب إلى إيقاظنا من غفلتنا فكان يتكرر في سؤاله الدائم عن الوطن، عن التراب، عن الأم، وعن العوة إلى أرض الزيتون وغصن الزيتون.

4. قائمة المراجع:

- صبيحة عودة زعرب: غسان كنفاني (جمالية السرد في الخطاب الروائي)، (الأردن، عمان، دار مجدلاوي، ط1، 1999م، ص12 و ما بعدها بتصرف).
- عاشور رضوى: الطريق إلى الخيمة الأخرى، دراسة في أعمال غسان كنفاني، (بيروت، دار الأدب ط2، 1981م).
- غادة السمان: رسائل غسان كنفاني لغادة السمان (بيروت، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1992م)،
- غسان كنفاني : الأعمال الكاملة (الروايات)، المجلد الأول، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ط1، 1972م).
- غسان كنفاني: رجال في الشمس، (قبرص، دار منشورات الرمال، 1913).
- غسان كنفاني: عائد إلى حيفا، (بيروت، لبنان ،مؤسسة الأبحاث العربية، ط6، 2004) .
- يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسات الأدبية، (بيروت ، لبنان ،مكتبة لبنان ناشرون ، ط1، 2000)،

References :

- Şubhîyah ‘Awdah Zu‘rub : Ghassân Kanafânî (jamālîyah al-sard fî al-khiṭāb al-riwā’î), (al-Urdun, ‘Ammān, Dār Majdalāwî, T1, 1999M, ş12 wa mā ba‘dahā bi-taşarruf.
- ‘Āshūr Raḍwā : al-tarîq ilā al-Khaymah al-ukhrā, dirāsah fî a‘māl Ghassân Kanafânî, (, Bayrūt, Dār al-adab t2, 1981M).
- Ghassân Kanafânî : al-A‘māl al-kāmilah (al-riwāyāt), al-mujallad al-Awwal, (Dār al-Ṭalī‘ah lil-Ṭibā‘ah wa-al-Nashr, Bayrūt, Lubnān, T1, 1972m).
- Ghassân Kanafânî : rijāl fî al-shams, (Qubruş, Dār Manshūrāt al-rimāl, 1913).
- Ghassân Kanafânî : rijāl fî al-shams, (Qubruş, Dār Manshūrāt al-rimāl, 1913).
- Ghassân Kanafânî : ‘Ā’id ilā Ḥayfā, (Bayrūt, Lubnān, Mu’assasat al-Abḥāth al-‘Arabîyah, T, 6, 2004).
- Yūsuf As‘ad Dāghir : maşādir al-Dirāsāt al-adabîyah, (Bayrūt, Lubnān, Maktabat Lubnān Nāshirūn, T, 1 2000).